مكتبة البنين
قسم الدوريات

جامعة قطر

حولية

كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

غير مسموح بإعارته من المكتبة

العدد الحادي عشر
١٤٠٩ هجرية - ١٩٨٨ ميلادية

معي والسيرة الذاتية

«أو شوقي ضيف في تاريخ حياته»

د. ماهر حسن فهمي
أستاذ بقسم اللغة العربية

أكبر الظن أن العنوان متأثر بكتاب « معك » الذي كتبته زوجة طه حسين ـ عن رفيق عمرها ، ولما كان شوقي ضيف يقدس الوفاء أولاً ويعتبر طه حسين ، المثل الأعلى له ثانياً ، فقد تحولت « معك » إلى « معي » عن وعي أو غير وعي ، ولكنها على كل حال لها كل الدلالات السابقة ، بالاضافة الى دلالتها على صحبتنا لصاحب السيرة الذاتية منذ الميلاد حتى اليوم .

والسيرة الذاتية لها مناهجها ، منها المنهج الوصفي ، ومنها المنهج التحليلي ، في مقابل المنهج التركيبي الذي تتألف منه السيرة الغيرية ، والمنهج التحليلي يمكن أن نمثل له « بقصة نفس » لزكي نجيب محمود و « أنا » لعباس محمود العقاد ، أما المنهج الوصفي فقد وضح بصورة أقرب الى التقريرية في « حياتي » لأحمد أمين ، وفي إطار العرض الروائي في « على الجسر » لبنت الشاطىء و « معي » لشوقي ضيف ، وأما « الأيام » لطه حسين فقد استفادت من كلا المنهجين : الوصفي الروائي والتحليلي . وبنت الشاطىء وشوقي ضيف كلاهما نشأ في دمياط وكلاهما صارع طويلاً حتى ثبت مكانته العلمية في الوطن العربي ، وصارع طويلاً بعض صور التخلف في القرية حين أتى الى المدينة الكبيرة ،

ولكنـه احتفظ بما في القرية من أصالة وقيم . توقفت بنت الشاطىء على الجسر عند التقائها بأمين الخولي ، ووقفت تتأمل الحياة التي عاشتها قبله حتى إذا التقت به وأحست أنها انتقلت نقلة جديدة جرت الأيام مسرعة عجلة ففقدته وعادت لتقف وحيدة . ولكن شوقي ضيف ـ ربما وحده ـ في هذا الجيل ـ جيل العمالقة والرواد ـ الذي ظل يعطي إلى اليوم ، فلم يتوقف القلم في يده ولم يستمرىء الراحة ، ولم يركن إلى الكسل العقلي ، ولم يبخل على أبناء جيله وعلى تلاميذه بثمرة جهده العلمي ، ومن هنا كانت قيمة هذه السيرة الذاتية .

« في قرية بجوار دمياط كان يربض مستنقع واسع يشغل أكثر من مائتي فدان ملىء بالأسماك وبنبات البردي وبأزهار النيلوفر (اللوتس) قائمة على سيقانها ليل نهار كأنما تنتظر موعداً مضروباً ، مطلة برؤوسها وأعناقها فوق مياه غارقة فيها ، كأنها دموعها ، ويسميها أهل القرية والريف المصري باسم البشنين ، وأوراقها تنضام ليلاً للنوم ، في شكل كأس زمردي ، وتتفتح الأوراق في الصباح ، مع نسمات السحر وأندائه المتلألئة عن شعـل ملتهبـة متعددة الألوان بين لا زوردي وأرجواني وكهرماني . وعند السيقان تستلقي أوراق عريضة مستديرة تتوسد المياه حول قامات البشنين الهيفاء ، كأنما تدعوها لتكتب عليها بمداد من حولها ـ لا ينفد ـ ما تشاء .

« و في الجانب المقابل للقرية تقع بحيرة المنزلة بصياديها وشباكهم ، وبمياهها الفضية البراقة ، وكأن سماء من البلور الناصع تمتد على سطحها المشرق الهادىء الساطع ، والمـراكب الشراعية تتهـادى فيهـا مقبلة مدبرة ، متمايلة مع الريح ـ تمايل الأغصان ـ بأشرعتها البيضاء ، المتفاوتة الأحجام ، وكأنما هي طيور سابحة بجناح واحد فريد ، وتقترب فتخالها حسنات منثورة على خدود البحيرة اللامعة البراقة ، وتبتعد جانحة الى المغيب فتخالها أهلة تغرب في الأفق السحيق » .

هكذا يبدأ شوقي ضيف سيرته الذاتية كأنه مصور يرصد المكان بخيال الفنان ، فنرى بعينيه قرية وسط شلال من الأضـواء والألـوان ، وننـدفع معه نلتهم الأسطر ونقلب الصفحات ، فنجده قد ولد بعد أخوين اختطفهما الموت ، ولذلك فرح به أبواه . والذي يقرأ طه حسين في الأيام يجده قد وقف عند حدث الموت موقف المحلل ، فجسم لنا موقفاً إنسانياً رائعاً لا يبرح ذاكرته ولا يبرح خيالنا، قصة الصراع بين الموت والحياة حين فقد أخاه ، وعجز الأبوين عن إنقاذ ولدهما وهو يموت رويداً رويداً حتى يخمد وتصعد روحه

ولا يعود أمام الانسان إلا أن يبكي من فقده ، أو يكتم لوعته والقلب ينزف ، أو يفلسف الموت . ولكن شوقي ضيف يمر على حادث الموت مروراً سريعاً ، لأنه لم يشهده بطبيعة الحال ، ولكن ألم يسمع عنه من أحد أبويه ؟ ألأن من مات مات طفلاً ليست له ذكريات الصبا والفتوة والشباب ؟ كل ذلك جائز .

وقد صور لنا شوقي ضيف القرية وأثرها وأحداث الطفولة وما تتركه في النفس ، وهي أحداث تختلف من فرد إلى فرد بطبيعة الحال ، فحادث وقوعه في مسرب المياه أثر في حياته من بعد فلم يتعلم السباحة مثل لداته وظل يخشى الغرق ، ونشأة الصبى وهو يرى في مكتبة أبيه كتب فقه وحديث وعلوم دين ، أثرت في نفسه ، ووجهته منذ نعومة أظفاره إلى حفظ القرآن الكريم ثم إلى المعهد الديني . والأقاصيص التي روتها له جدته مما كانت تسمعه من زوجها وهو يقرأ أخبار الفتوح الإسلامية ظلت لا تبرح ذاكرته مثل تلك التي تروي ما سمعه المأمون من زبيدة زوجة أبيه الرشيد وأم الأمين ، حين ألح عليها في أن تذكر له ما تمتمت به فقالت : كنت أقول ليت هذا الموكب كان لابني الأمين ، فندم المأمون على الحاحه . وهذه القصة وأمثالها مما لقنه الفتى في صغره عودته ألا يلح في أي شيء وألا يفكر في التعرف على أى خبر يمس شخصاً مهما تكن صلته به ، وظل يبغض التطفل والمتطفلين . وهكذا نتعلم من السير الذاتية ومن مثل هذه الالتفاتة التربوية ، ونضيف إلى خبراتنا في الحياة خبرات الأعلام .

وإذا كان طه حسين قد حدثنا عن الخرافات في القرية النائية بصعيد مصر التي نشأ فيها وأثرها في نفسه ، فإن شوقي ضيف يحدثنا عن الخرافات في قرية بشمال الوادي ـ العفاريت ـ ولكنه يربط بينها وبين الخرافات التي سمعها بعد ذلك حين زار بلاداً أوربية ومنها سويسرا ورأى بيت الأشباح كما يسميه سكان القرية السويسرية وهو قريب من منزل « أينشتين » الذي سكنه مدة هناك ، « ولا يجرؤ أحد على سكناه خوفاً من الأشباح التي تقطنه ، وهي خرافة كخرافة الكائن البحري الذي يعتقد أهل اسكتلندة أنه رابض في بحيرة لوخ نيس وأن أحداً لا ينزل فيها إلا ويفتك به ، وهما دليلان واضحان على أن الأمم مهما ارتقت عقلياً وعلمياً لا تزال الخرافة تجد مأوى لها في أذهان أرقى الأمم فكرياً ، وكما يتضح ذلك في الأمم يتضح في الأفراد . فقد يكون الفرد من أعلم معاصريه بقوانين العلوم الطبيعية ، ومع ذلك يؤمن بالأشباح وبقوى غيبية لا يستطيع ردها ولا

دفع شرها فضلاً عن فرض سيطرته وإرادته عليها ، وهي مبالغات وخيالات ينبغي أن يتخلص منها الانسان ويطرحها بعيداً حتى لا تفسد عليه حياته » [1] .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد كانت هذه الأقاصيص التي يسمعها الصبي تطلق خياله ، حتى إذا نما عقله أعاد هذه الخيالات إلى حجمها الطبيعي ، وهي مرحلة تمر بها الشعوب في نشأتها الأولى ، وتبقى رواسبها فيما يسمى بـ « العقل الجماعي » الذي تختزنه الشعوب ولذلك لا يستطيع كثير من الأفراد التخلص من آثاره تماماً كما نقول نحن - دارسي الأدب - عن الشعراء ، إن استنطاقهم للطبيعة يرجع في بعض تفسيره إلى هذه المرحلة السحيقة من نشأة الانسانية والتي ما تزال آثارها في نفوس البشرية الى اليوم ، ومن هنا نتذوق جميعاً الشعر لأنه يربطنا بجذورنا البعيدة من ناحية ، ويثير خيالنا من ناحية أخرى إلى جانب تعبيره عن حياتنا .

وهذه البدايات ترتبط بعد ذلك بما كان الصبي يسمعه من « الشاعر » وهو منشد قصة الهلالية ، وبطليها « أبو زيد الهلالي ودياب بن غانم الزغبي » ولكل منهما مغامراته الحربية ، وعادة ينشد الشاعر أجزاء من القصة على الربابة ، ومنذ ألف عام على وجه التقريب كانت تنشد هذه السيرة في القرى المصرية وتشايع قرية أبا زيد وأخرى تشايع دياب ابن غانم بطل بني زغبة ، فبعضها هلالية وبعضها زغبية ، وكأن ذلك تعبيراً عما بين القرى من تنافس كما يقول المؤلف ولا يدع المؤلف الفكرة تفلت من يده بمجرد ذكرها فهو يشعبها الى شعبتين ، الأولى الإحساس بالانتماء العربي منذ زمن لأن القرى والنجوع إما هلالية أو زغبية ، فهي تشعر بالانتماء ليس حباً في البطولة وحدها ولكن حباً في الانتماء الى البطولة العربية التي هي جزء منها . أما الأمر الثاني ، فهو اهتمام الصبي منذ ذلك الوقت بقراءة السير الشعبية وأثر هذه القراءات في تكوينه الأدبي . وهكذا نجد الكاتب ينفذ من الفكرة المعروضة الى أعماقها من حين إلى حين محاولاً التحليل ، وإن كان الوصف والسرد يغلبان على السيرة في النهاية .

ومهما توزع حديث المؤلف فإن نقطة الانطلاق دائمًا هي القرية يعود إليها من حين إلى حين يستروح أنسامها ويحن إليها ويرى فيها ما لا يراه في المدينة التي تلقفته بعد ذلك فصنعت منه الشخص الذي نعرفه ومنحته الثقافة والشهرة والمنصب ، ولكن حنينه الى

---

(١) مخطوطة حـ ٢ ص ٥١ .

القرية لا ينتهي ، فيذكرنا بديوان أحمد عبد المعطي حجازي « مدينة بلا قلب » ، وأهم ما يشده الى القرية بساطتها وما فيها من تلقائية ، « فالعمل خارج المنزل في الوظائف كثير ، والمعرفة تشعبت وتراكمت في أذهان الأمهات ، بحيث ضاعت منهن الحكمة البصيرة » (الجزء الأول ص ٢٥) ، والطبيعة التي شدت كل مهاجر الى المدينة ، والموال الذي يردده القروى والقروية يضفي سحراً خاصاً ، ويزرع حب الفن ، ولذلك نجد القطعة الأدبية الراقية في السيرة تتعلق دائمًا بوصف الطبيعة ، التي تعلق بها الكاتب منذ مرحلة الصبا « فنشأ يرنو إلى الجمال الطبيعي ويحب الريف ومناظره حباً يملك عليه ذات نفسه : مناظر الحشائش وطنافسها الخضراء والأرز والقمح وسنابلها الشقراء والقطن ولوزه يتفتح وتتدلى منه خصله البيضاء ، وهنا وهناك أشجار النخيل المصعدة في السماء حاملة أعذاقها ومشاعلها الحمراء ، والمياه تتهادى في القنوات ، والبشنين كالطاووس يزدهي بألوانه ، والورود تتمايل مع النسيم مذيعة سر شذاها العطر ، وسقاة الأرض ، في سكون الليل الجاثم على الحقول ، يتغنون على السواقي ببعض الأغاني الريفية الساذجة التي طالما استمع إليها النيل وقنواته منذ آلاف السنين ، كل ذلك يسكب في نفس الصبي متاعاً ما بعده متاع » . (الجزء الأول ص ٢٨) .

على أن أثر القرية الاجتماعي كان يتمثل في وحدة القرية أمام الآمال والآلام والأفراح والمآتم ، كأنها أسرة كبيرة على كل فرد فيها أن يشارك الآخرين مشاعرهم فيفرح معهم اذا فرحوا ، ويحمل همومهم في كل ما يصيبهم من كوارث . وأحسب أن حياة المدينة استطاعت أن تغير الدكتور شوقي ضيف في هذا الجانب ، فلم يعد ذلك الرجل الاجتماعي إلا بقدر ما يقدم لطلابه من عطاء ، وقد أعطى في هذا الجانب بلا حدود ، ومن هنا كان البديل الذي توفر له في المدينة .

وكانت القرية تقيم من حين إلى حين ليالي للذكر احتفالاً بقدوم أحد أصحاب الطرق الصوفية . « وكان الصبي لا يترك احتفالاً من هذه الاحتفالات الا ويحضره للفرجة على الذاكرين والاستماع للمنشد . . . ومن المؤكد أن الصوفية أدوا للاسلام خدمات عظيمة بنشره في غربي إفريقية وأواسطها وشرقيها وفي أواسط آسيا » .

وهذا النص يثير أمرين : الأول أسلوب العرض ، والثاني انتشار الطرق الصوفية من ناحية ودورها من ناحية ثانية . أما أسلوب العرض فهو الأسلوب الروائي كما قلنا وقد أخذت السيرة من الرواية وأعطتها أخذت منها أسلوب العرض وأخذت منها ضمير

الغائب . وضمير الغائب يتيح لكاتب السيرة ـ كما أتاح لطه حسين من قبل ـ أن ينطلق على سجيته كأنه يروي قصة شخص آخر ، في حين أخذت القصة من السيرة الذاتية ضمير المتكلم الذي يوهم القارىء بأن القصاص يروي سيرة ذاتية .

أما الأمر الثاني فهو الحديث عن الطرق الصوفية ولم تقف عدسة الكاتب أمام الطرق الصوفية طويلاً ، لتصف احتفالاتهم وهم يسيرون في الشوارع ببيارقهم ، ثم وهم يقفون صفوفاً ويتطوحون يميناً ويساراً بعنف حتى يتخلصوا من حسية الجسد ولا يبقى سوى الروح واللسان يذكران الله ، وقد تراجعت هذه الصور الآن كثيراً ، وإن كانت ماتزال في القرى النائية وفي الموالد ماتزال لها بقية تتضاءل أمام انتشار التعليم . وعاد مفهوم التصوف يرتبط بجوهر الاسلام وخدمة الدين . والواقع أن الصوفية قد نشروا الاسلام في إفريقيا وآسيا ، حتى أن الخطوط التي ترسم في إفريقيا لبيان حدود الاسلام وراء خط الاستواء ، تنتقل متقدمة الى الجنوب كل عام . وقد حاول محمد توفيق البكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر أول هذا القرن أن يرد على منكري العقائد الصوفية والداعين الى تصفيتها باعتبارها مما دخل الاسلام في القرن الثاني عن طريق الفرس بدليل أن مشايخ الطرق الأولين كلهم من الأعاجم كالجنيد النهاوندي وأبو زيد البسطامي وابراهيم ابن أدهم البلخي وسهل التستري . ومن أجل ذلك يرد البكري ذاكراً أن الصوفية فتحت للاسلام قدر ما فتحته سيوف المسلمين ، وإصلاح الصوفية يكون بتوجيه التصوف حتى يصبح مدرسة عظمى هدفها العلم بالشرع والعمل به ولا يكون بتصفية التصوف والحركة الصوفية التي دوخت المبشرين[1]

لقد حفظ الصبي القرآن صغيراً وكان يتلوه تسميعاً دون أي لحن وهو في حدود العاشرة من عمره ، ومما لاشك فيه أن هذا الجيل الذي حفظ القرآن صغيراً ، كان جيلاً متمكناً من اللغة العربية ، وسر تمكنه من لغته هو حفظ القرآن ، لأن القرآن ليس نصاً بليغاً وحسب ، ولكنه مجمع فصاحة وشريعة وقياس نحوي ومعجم لغوي .

وكأنما أراد أن يربط الدكتور شوقي ضيف بين عالمه الداخلي والعالم الخارجي من حوله ، لأنه يشعر بالانتماء الى دولة والى أمة ، هو فرد فيها ، فما يصيبها ينعكس بالضرورة عليه سلباً وإيجاباً ، ولذلك يربط باستمرار بين حياته وحياة الأمة . فثورة

(١) راجع المستقبل للاسلام لمحمد توفيق البكري ص ٢٠ .

١٩١٩ وما أعقبها من مناورات الانجليز والخلاف الذي حدث بين سعد زغلول وعدلي وفشل المفاوضات مع بريطانيا ، كل ذلك جعل سعد زغلول يصبح رمزاً للأمة تجتمع حولـه . ولكن أسلوب العـرض الشيق لا يربط بين الحياة العلمية والحياة السياسية وحسب ، بل يحيل الرابطة الى وحدة عضوية .

« وكان سعد قد أخذ يلهب حماسة الأمة بخطبه النارية في شهري أكتوبر ونوفمبر مطلع أول عام للصبي في معهده الديني بدمياط ، وكان طلاب هذا المعهد كغيرهم من أبناء الأمة يتأججون وطنية ، فلم تكد تنتظم الدراسة فيه يوماً ، ولم يكن للطلاب من حديث سوى خطب سعد وكلماته الملتهبة . . . واستشاط الانجليز حنقاً وغضباً ، ولم يلبثوا أن اعتقلوا سعد زغلول في ٢٣ ديسمبر عام ١٩٢١ مع سبعة من أعضاء الوفد ونفوهم إلى سيلان ومنها الى سيشل . . . ولما تفاقمت المظاهرات والاضرابات تقرر إلغاء الدراسة في الأزهر ومعاهده الدينية لهذا العام الدراسي . وفي الحق أنه لم يكن عام دراسة بل عام ثورة وكفاح وجهاد . وتتعاقب الأحداث ويقرر الوفد عدم التعاون مع الانجليز في جميع المعاملات الفردية ، كما يقرر مقاطعة بنوكهم وشركات تأمينهم وسفنهم وكافة أنـواع التجـارة معهم . ويضطر الانجليز الى إعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ معترفين باستقلال مصر » . (حـ ١ ص ٤٦) .

على أن الحياة العلمية ليست دراسة في المعهد أو المدرسة وحسب ، ولكنها أيضاً ثقافة تهم الجمهور . ومن هنا كانت الصحف الحزبية الى جانب اهتمامها بالخبر السياسي تهتم بالمقـال الأدبي ، لأن الأدب في مرحلة نشوء الأمم هو معلمها الأول ، يعرض عليها الحقـائق العلمية بأسلوبه الأدبي ، ويدفعهم دفعاً إلى حب العلم . ومن هنا اهتمت الصحف بمقالات محمد حسين هيكل وطه حسين والعقاد وكانوا يعتبرون من المجددين ومصطفى صادق الرافعي وكان حاملاً لواء المحافظين . وكان الصبي يعجب بهم جميعاً ويقرأ لهم جميعاً ولكن طه حسين كان أقربهم إلى قلبه ربما لأنه بدأ حياته أزهريا مثله ، وربما لما يمتاز به أسلوبه من بيان وسهولة معجزة .

ومن هذه الفترة تبدأ الحياة العلمية تملك وقت الفتى وعقله ، حتى نهاية الجزء الأول من السيرة ، فهو يتحدث عن أول كتاب ألفه في النحو ، وكان « مغني اللبيب » لابن هشـام هو الذي أوحى للفتى مبكراً بالحاجة الى تبسيط النحو للناشئة ، وظلت هذه الفكـرة معه حتى كان آخر كتاب ألفه عام ١٩٨٦ هو « تيسير النحو التعليمي قديمًا

وحديثاً مع نهج تجديده » هذا بالاضافة الى كتابه « تجديد النحو » الذي أصدره عام ١٩٨٢ ، وفيهما دعوة إلى تيسير النحو وحذف كثير من أبوابه المختلف عليها والمعقدة ، لأنه ذاق ما يذوقه المعاصرون اليوم من متاعب في دروس النحو .

على أن النحو لم يكن شغله الشاغل ، فدائرة ثقافته تتسع باستمرار . فيشغله الأدب المهجري الذي يقرأه عند تاجر لبناني ، ويجد له مذاقاً خاصاً ، في الوقت الذي كان فيه شوقي عملاق الشعر في هذه المرحلة تنشر الصحف شعره وتتسابق الى عرض كل قصيدة جديدة فتحتفل بها احتفال من ظفر بكنز . وهكذا اتسعت دائرة الحياة الثقافية حول الصبي ، وقد كانت المرحلة خصبة حقاً ، تحاول تأكيد ذاتها ، واستجلاء هويتها ، تارة بتحصين نفسها بالتراث ، وتارة بمسايرة كل جديد تأتي به الحضارة الغربية والفكر الغربي . ومن هنا وجدنا قضيتي على عبد الرزاق (الإسلام وأصول الحكم) وكتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين اللذين صدرا عام ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ يحدثان دويا أشبه بدوي القنابل ، فالأول يناقش فصل الدين عن الدولة ويرى أن الخلافة ليست جوهراً وأصلاً من أصول الاسلام وقد حوكم على عبد الرازق وفصل من هيئة كبار العلماء ، والثاني يشكك في تاريخ الأدب ويطبق منهج الشك الديكارتي متأثراً « برينان » ، ولكن الأخطر أنه يرى أن ما أتي به القرآن من أخبار وآثار لابد أن يدعمه البحث العلمي الحديث عن طريق الحفريات والآثار والنقوش وغيرها ليكون مؤكداً على كل المستويات ـ وهو يعني أن يكون مقنعاً لغير المسلمين أو للبشر كافة ـ ولكن خانته العبارة ، فأثار ضجة هائلة وصودر الكتاب وأحيل مؤلفه للنيابة العامة للتحقيق ونوقش الموضوع في البرلمان ، وظل بين أخذ ورد ، حتى حسمت النيابة المعركة وحفظت القضية .

وقد تخرج الفتى في معهد دمياط الديني عام ١٩٢٦ وسط هذا الجو الفكري المثير والجدل الذي يملأ صفحات الكتب والأخبار التي تتناقلها الصحف ، والطلاب يعيشون هذا المناخ ويناقشونه ، وأصبح تلميذاً بمعهد الزقاريق الثانوي الديني حين كانت قضية طه حسين تشغل الطلاب والأساتذة والمجتمع والصحف والبرلمان والنيابة ، فهي إذن مرحلة صراع فكري هائل ، تصهر الجميع ، فينجلي المعدن النفيس .

وهو لا ينسى أنه أزهري النشأة فيدافع عن طريقة الأزهر التقليدية التي تركز على المتون ، وتهتم بالشروح والحواشي والتقارير ، ويرى أن كل هذه التعليقات والتفريعات أشبه بدائرة معارف ، وأن الجامعات لم تفد من هذه الطريقة فيما يمكن أن يسمى بعلم

احتمالات النصوص . وهي وجهة نطر على أية حال وإن كانت هناك وجهة نظر مقابلة (فلكل فعل رد فعل مساو له في القوة ومضاد في الاتجاه) ترى أن هذه الشروح والتعليقات والتلخيصات والتفريعات لا تمثل مرحلة إبداع ولكنها تمثل مراحل كسل عقلي اعتمد على المتون وأخذها على أنها معجزات تحتاج الى الشرح والتعليق والتلخيص ، وكل هذا لا يمثل دائرة معارف بقدر ما يمثل أغلالاً وأثقالاً على القارىء أن يحملها أو يحتملها سواء فهمها أو لم يفهمها ـ ومازلت أذكر وأنا أدرس البلاغة في كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ وكنا ندرسها في المفتاح للسكاكي الذي لخصه القزويني وشرح التلخيص للتفتازاني (ومعه هوامش هي مواهب الفتاح لأبي يعقوب المغربي وعروس الأفراح للسبكي وحاشية الدسوقي) ، أن الشارح حين كان يقف عند جملة يترك المدلول البلاغي ويدخل في المعاني الاصطلاحية فتشبيه صوت المرأة بالرياض لا يلفت الشارح فيه الا معنى الصوت وهو (مقابلة القارع للمقروع والقالع للمقلوع من حيث هو) .

وهو يمر على أحداث ضخمة مروراً سريعاً كأنه يسترجع أطياف الماضي ، وكأن شريط الذكريات يمر مسرعاً عجلاً ، لأنه يريد أن يتوقف عند حياته هو لا حياة الآخرين ، فامارة الشعر التي وضعت على رأس شوقي إكليل الزعامة يوم ٢٩ أبريل عام سبعة وعشرين وتسعمائة وألف ، والوفود الرسمية والشعبية من أبناء الأقطار العربية وأدبائها ، من فلسطين ولبنان وسوريا والأردن والبحرين وعدن والمهجر والمغرب التي استعدت للحضور في هذا اليوم ، ومنتدى التهذيب في بغداد الذي قرر إقامة حفل تكريم لشوقي في نفس اليوم الذي يحتفل به فيه بالقاهرة ، كل هذا لا يتحدث عنه إلا حديثاً عابراً مع أن العرب لم يجتمعوا على شاعر في تاريخهم الطويل كما اجتمعوا على شوقي وإمارته ، فهو شاعر الفن الخالد ، شاعر الاسلام ، شاعر العروبة ، شاعر المسرح ، شاعر الأغنية ، شاعر الأطفال .

وهو ما يزال يمزج الأحداث الخاصة بالعامة ، فلم يلبث سعد زغلول أن مات ، وهكذا ودعت مصر زعيم الأمة ومجاهدها الأكبر ، وهو حدث ظل صداه يتردد في الحياة العامة والخاصة الى عهد قريب ، لأن أعلام الأمم لا ينتهون بموتهم ، فهناك من يحمل الشعلة من بعدهم ويستمر على دربهم . وينتقل من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة فالجامعة المصرية تفتح أبوابها عام ثمانية وعشرين وتسعمائة وألف وتقبل تجهيزية دار العلوم ، وبذلك تحول الفتى إلى الزي الإفرنجي خلال العام الدراسي ٢٨ / ١٩٢٩ .

وتغيير الزي مجرد رمز ولكنه يعني أنه يتأقلم مع الحياة الجديدة بسرعة ، ومع التطور الموعود ، مثلما فعل طه حسين حين غير زيه الأزهري في السفينة التي عبرت به إلى أوروبا ، ولكن جيل طه حسين كان عليه أن يقوم بعملية التطوير ، لا أن يعيش التطوير ، ومن هنا كان طه حسين يسابق الأيام ، أما شوقي ضيف فيساير الأيام . طه حسين كان عميد كلية الآداب فسمح ـ لأول مرة في تاريخ الجامعة ـ بقبول الفتاة ، برغم كل ما وجه للجامعة من نقد ، لأنه مقتنع أن هذا حق لها ، وأن عملية التطوير لابد أن تتم على يده ، وشوقي ضيف دخل الجامعة فوجد الفتاة طالبة بها لأول مرة ، فلم يستنكر ولم يرحب ، وما كان له أن يستنكر أو يرحب ، وهو بعد في مرحلة بين البينين كما يقال ، فقد انتظم مع زملائه من حملة تجهيزية دار العلوم في سنة تمهيدية يتعلمون اللغات الأجنبية قبل التحاقهم بالسنة الأولى .

ولكن الأيام تجري بسرعة عجلة ، فيعزل طه حسين من قبل صدقي باشا رئيس الوزراء ، لأنه رفض الكتابة في صحيفة حزبه المسمى بحزب الشعب ، « ورد وسطاءه رداً غليظاً ، إذ كيف يتعاون مع من ألغى دستور الأمة وخنق الحريات واضطهد الأحرار وسفك الدماء الطاهرة في انتخاباته المزورة ، فعزله صدقي في منصبه ونقله الى ديوان وزارة المعارف ، فلم يذهب إليها وقدم إلى وزيرها استقالته . وأضرب طلاب الجامعة . . . وغضب لطفي السيد مدير الجامعة بسبب هذا العدوان على استقلال الجامعة وقدم إلى الحكومة استقالته »[1] .

ويتلمذ الفتى على يد أحمد الاسكندري ـ بدلاً من طه حسين ـ وإبراهيم مصطفى وأمين الخولي وعبد الوهاب عزام وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق ، هذه الحلقة الذهبية التي وهبت نفسها للعلم وأعطت بغير جدود . ولكن طه حسين يعود في العام الأخير للفتى في الجامعة ، ويدرس معهم كتابين « الموازنة » للآمدي ، و «تاريخ الأدب الانجليزي » لتين . وهو هنا يحرص على الثقافتين العربية الأصيلة والغربية بمناهجها النقدية المعاصرة . ويمر صاحب السيرة مروراً سريعاً على مرحلة عمله بمجمع اللغة العربية ـ الذي سيصبح عضواً فيه بعد فترة من الزمن ـ لأنها كانت مرحلة قصيرة ، فلم يلبث طه حسين أن عين لأول مرة بكلية الآداب معيدين ، ويختار الفتى معيداً بقسم اللغة العربية خلال العام الدراسي ٣٦ / ١٩٣٧ . وتبدأ رحلته مع الدراسات العليا ،

---

(١) معي ص ١٠٠ .

فيختار موضوع « حركة النقد في كتاب الأغاني » ومن هنا سيطر مبكراً على مادة الشعر وتاريخه لأن كتاب الأغاني موسوعة كبرى في تاريخ الشعر العربي ، وتناقش رسالة الماجستير في يناير ١٩٣٩ . ويبدأ على الفور مع أستاذه طه حسين اختيار موضوع للدكتوراه وهو (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) ، وكأنما حياته كانت بحثاً متصلاً في هذه الفترة التي تنتهي بالجزء الأول من سيرته .

ويبدأ الجزء الثاني من السيرة بحصول الفتى على درجة الدكتوراه وتعيينه مدرساً بالقسم الذي تخرج فيه منذ سنوات وعمل فيه منذ تخرج ، فها هو ذا بعد ست سنوات يصبح زميلاً لأساتذته ، وأستاذاً لتلاميذه ، وهو ما يزال يرى الصداقة أكثر دواماً وأرحب صدراً من الحب لأن الصداقة مشتقة من الصدق في المودة والحب أناني بين فردين كل منهما يريد الآخر لنفسه وحسب . وشوقي ضيف نادر الحديث عن هذه الأمور التي نسميها انسانية . فمشاغله لها خط واحد يدور من بعيد أو قريب حوله هو البحث العلمي ، كأنما محور حياته قد تحدد وهدفه قد تحدد وهو يسير إلى هدفه الذي يعرفه فلا يحيد عنه ، ويجد العون من الأصدقاء أساتذة وزملاء وطلاباً ، ولذلك يتوقف عندهم لأنه يكبر الصداقة ومن ثم يكبر الوفاء ويجله .

والنماذج التي ضربها أصبحت نادرة في أيامنا هذه التي تتسم بالمادية المفرطة ، فقد مرض عبد العزيز فهمي ـ عضو المجمع عاماً كاملاً ، فلما شفي من مرضه وهب مكافأته المجمعية طوال العام لطبع كتاب جيد لأحد الشبان ، ووقع اختياره على رسالة شوقي ضيف بناء على تزكية طه حسين . ويقابل شوقي ضيف عبد العزيز فهمي لإهدائه نسخة من الكتاب بعد طبعه وشكره على ما قام به . ولا يجد فرصة ينفذ منها إلى موقف تربوي إلا استغلها ، فهو أستاذ يعلم ويوجه ، ومن هنا وقف أمام عبد العزيز فهمي وهو يقرأ رسالته ، فيستوعب الصحفة في ثوان كأنما قد طبعت في ذاكرته ، ثم أخذ يناقشه مناقشة القارىء الواعي ، ومن هنا يتجه إلى معلمي الناشئة ليدربوهم على سرعة القراءة . والحقيقة أن معلمي الناشئة لا يستطيعون ذلك ، لأن سرعة القراءة أصبحت علماً قائماً بذاته في كثير من الدول المتقدمة ، فهم يبدأون مع الطلاب ببضعة أسطر وبأجهزة وتقنيات معدة لهذا الغرض ، ويتركون للطلاب فرصة ، ثم يمحون الأسطر ، ويزيدون عدد الأسطر في كل مرة حتى يمكن للطلاب في النهاية أن يقرأوا الصفحة في ثوان وينتقلون من السهل الى الصعب ، ومن التخصص إلى الكتب الثقافية العامة وهكذا

وفق نظام لا يستطيعه المدرسون المجهدون في مدارسهم لأنهم لا يعرفون هذا النظام أولاً ولأنه لا يدرك بالدربة وحدها .

ويؤلف (الفن ومذاهبه في النثر العربي) ويطبعه عام ١٩٤٦ ، ويهدي نسخة لعبد العزيز فهمي ، فيجد الشيخ الذي بلغ الثمانين من عمره يبذل جهداً عنيفاً في ترجمة (مدونة جوستينيان) في الفقه الروماني . لم يكتف بالنسخة الفرنسية ، بل رأى أن يتزود باللاتينية حتى يرجع إليها إذا توقف في عبارة . وكان الربو يصيبه بنوبات متتالية فيكاد جسده الضاوي يتهاوى ، ولكنه يعود بعد كل نوبة صلباً وقاد الذهن منكباً على العمل الشاق . وهكذا يقدم لنا النموذج الحي والمثل الأعلى للإخلاص في العمل العلمي ، الذي لا يرجو صاحبه من ورائه كسباً مادياً ، فهو قد وهب نفسه للحياة العلمية كما وهب أكثر جيله من المثقفين أنفسهم أمثال طه حسين والعقاد وأحمد أمين وغيرهم وهؤلاء كانوا القدوة التي اقتدى بها شوقي ضيف ، فإذا كنا اليوم نعجب له ونعجب به ، ونعتبره نموذجاً فريداً في حياتنا المعاصرة ، فقد كانت القدوة أمامه في هؤلاء الأعلام ، الذين يحاول البعض اليوم الانتقاص من شأنهم لا لشيء ولكن لأننا نتلذذ بمحاولة تحطيم شوامخنا ، كأن ذلك سوف يمكننا من احتلال مواقعهم ، وكل ما صنعناه ، أننا أفقدنا الشباب المثل الأعلى وتركناه حائراً .

ويمنحنا عدة صور للوفاء وفاء الصديق لصديقه ممثلاً في الدكتور سامي الدهان محقق ديوان أبي فراس ، ووفاء التلميذ لأساتذته ، وهو يشيد في كل حين بطه حسين وعبد العزيز فهمي وغيرهما ، ثم وفاء الأساتذة لتلاميذهم وهنا يذكر أن ثورة يوليو عندما قامت أعلنت وجوب تطهير الإدارات الحكومية ، وتألفت لجنة للتحقيق في ما تلقته من شكاوي و« فوجيء صاحبي بخطاب من أستاذه الدكتور عبد الوهاب عزام عميد الكلية الأسبق وكان قد أصبح سفيرا لمصر في باكستان ، وإذا هو يقول في خطابه : إن كنت قد ضقت بشيء في كليتك ـ وكان اللغط قد تكاثر في الصحف ـ فإن لك عندي عملاً في السفارة على الرحب والسعة ، وأنا في انتظار ردك ، فرد عليه شاكراً وذكر له أن لا علاقة له بكل ما حاق بالكلية ، وأنه يؤثر البقاء في كليته مع طلبته ولا يبغي بذلك بديلاً . وهي صورة رائعة من صور وفاء الأساتذة لتلاميذهم »[1] .

---

(١) حـ ٢ ص ١٠ .

ولعل الدافع الذي دفعه في كثير من الأحيان إلى الكتابة هو كراهيته للظلم ، فتلك الحملات الظالمة التي نالت شوقي بعد وفاته ، هي التي دفعته إلى الكتابة عن شوقي محللاً شعره الغنائي والتمثيلي ، موضحاً مكانته الرفيعة في الشعر العربي الحديث ونشره عام ١٩٥٣ . وعلى الرغم من اختلافه مع كل من طه حسين والعقاد في آرائهما حول شوقي ، فإن طه حسين والعقاد بالذات هما اللذان رشحا كتابه لجائزة الدولة ، ولم تأخذهما العزة بالإثم ، فحمد لهما هذا الموقف . وهكذا الشأن عندما توفي العقاد ، وكثر الجدل حول قيمته الأدبية والفكرية وأي شيء يبقى منه للتاريخ ، أحس أن الرجل لم ينصف ومن هنا كان كتابه عنه وما فيه من رد على النقد الظالم ، ومحاولة لإنصاف الرجل . وإذا كان هذا كله رد فعل لمواقف معينة ، فالحقيقة أن شوقي ضيف حين يذكر لا يذكر بكتابه عن العقاد أو غيره ، بقدر ما يذكر بهذه الخريطة التي وضعها للتطور الأدبي منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث ، وكأنما عاد ما أفاده من كتاب الأغاني في بداية حياته ، يصب بعد أن نضج ، ويوجهه لوضع معالم هذا التاريخ الأدبي .

لم يقم أحد من قبل بهذا العمل العلمي الضخم الذي صدر في ثمانية مجلدات (العصر الجاهلي ـ العصر الإسلامي ـ التطور والتجديد في الشعر الأموي ـ العصر العباسي الأول ـ العصر العباسي الثاني ـ عصر الدول والإمارات في الجزيرة والعراق ـ عصر الدول والإمارات في مصر والشام ـ الأدب العربي المعاصر في مصر) . وهو جهد لجان علمية تستغرق أجيالاً ، وليس جهد فرد ، وتوقف عند الأدب العربي المعاصر في مصر وإن كان قد أصدر كتابه (دراسات في الشعر العربي المعاصر) ، ولكنه رأى أن الشعر العربي الحديث في بيئاته المختلفة يحتاج الى زمن وجهد لا يقوى عليه إلا الشباب الذين يمكنهم أن يسيروا على الدرب الذي عبده لهم . ومن هنا بدأت اهتماماته أخيراً تتجه إلى أمر يشغل بالنا جميعاً ، وهو مشكلة الضعف البين في اللغة العربية ، وعلى الأخص فيما يتصل بالنحو العربي ومشكلات تعلمه ، فاتجه الى دراسة المدارس النحوية أولاً ، ثم ألف كتابه (تجديد النحو) وأخيراً أصدر (تيسير النحو قديمًا وحديثاً مع نهج تجديده) وألغى فيه كثيراً من أبواب النحو التي اختلف فيها القدماء وذكر مصادره في الحواشي ليكون كتابه حجة على من يدعي أن المشكلة معاصرة ترجع إلى أننا لا نأخذ طلابنا بالشدة في لغتهم ولا ترجع في بعض أسبابها إلى المادة العلمية نفسها .

بدأت مرحلة ثالثة في حياة شوقي ضيف ، فقد بدأ ينفتح على العالم ويرحل في كل

اتجاه ، وهو الذي عكف على مكتبه وكليته وطلبته طول هذا الزمن . كان ذلك عام ١٩٥٦ حين وجه اتحاد الكتاب في رومانيا وروسيا دعوة إلى اتحاد كتاب مصر كي يرسل وفداً لزيارة البلدين ووقع الاختيار على خمسة كان هو واحداً منهم ، ولعل هذه كانت البداية ، لأنه سوف يمكث بعدها خمس سنوات في مصر ، قبل أن يبدأ السفر بطريقة شبه دورية على مدى عشرين عاماً .

أما الرحلة الأولى إلى رومانيا وروسيا ، فقد استغرق وصفها صفحات وصفحات ، فهو يتحدث عن الفاتيكان وقصره ويصفه وصف أديب تلتقط عينه كل جزيئة ، ويزور روما فيصف مبانيها وشوارعها ونافوراتها المشهورة ويرتد به الزمان إلى أيام مجدها وعزها ، ويعود به الحاضر الى واقعها . ثم يسافر إلى رومانيا فيتوقف عند بوخارست ، ويلفت نظره ما أعده المسئولون هناك للأدباء والمفكرين من أسباب الراحة ممثلة في بيوت خاصة بهم تستقبلهم أثناء تأليفهم لأعمالهم وتهيىء لهم الجو المريح والهدوء المطلوب والتفرغ المرغوب ، ثم هي تكافئهم بعد ذلك مكافآت سخية على ما ينجزون من أعمال ، وكأنه يوازن في الواقع بين الأديب هناك والأديب ههنا في الوطن العربي الذي تسحقه الوظيفة ومطالب الحياة ويلهث وراء مشكلاته اليومية ، ثم يعود آخر النهار كي يكتب ، فهو فعلاً شمعة تحترق واحتراقها يكون سريعاً ، لأننا لم نعرف كيف نحافظ عليها فنوقدها وقت الحاجة . ويعجبه اتجاههم العملي فهم قد قضوا على الأمية هناك بعد أن أسهم جميع أفراد الشعب ، فقد فرضوا على كل قارىء أن يعلم واحداً ، وعلى كل مؤسسة أن تكافح الأمية بين العاملين فيها ، ولو صنعنا هذا في وطننا العربي لقضينا على الأمية نحن أيضاً ، ولكننا لا نريد أو لانود أن نتعب أنفسنا في التنفيذ ولتبق الأمية تشكل ستين في المائة حتى تتولاها الأجيال الآتية .

ثم سافروا بعد ذلك إلى موسكو ، ويتحدث عن كل شيء هناك ، الحياة العلمية ، حيث يتعلم التلميذ في المرحلة الثانوية كيف يسوق السيارة ويتعرف على أجزائها حتى يصلح أعطالها ويدرس أجزاء الراديو والتليفزيون ، حتى إذا انتهى من هذه المرحلة كانت دراسته عملية مبنية على أساس نظري . ويتحدث عن مزارع الاتحاد السوفيتي وأنواعها الحكومية منها والتعاونية ، وكأنه يريد أن ينقل إلى القارىء صورة عما رآه تغنيه عن المشاهدة ، وتسعفه في ذلك عينه اللاقطة التي عرفناها في وصفه للطبيعة أيام طفولته .

« وزار صاحبي ورفاقه الكرملين ، وأمامه ساحة واسعة كبيرة وحوله سور به أضرحة

لزعماء روسيا ، وعلى ظاهره من الخارج شواهد بأسماء بعض الشخصيات المدفونة بجواره . وبناء الكرملين مقسم ثلاثة أقسام : قسم لمتحف وقسم لمجلس السوفييت الأعلى واللجنة المركزية ، وقسم لدوائر الحكومة . وقد بدأ بناؤه في القرن الحادي عشر ، وظلوا يضيفون إليه ملاحق جديدة حتى القرن الخامس عشر الميلادي . وعلى السور أبراج ذات رؤوس تشبه المسلات بنيت قديمًا للحراسة . وقد دخل صاحبي مع رفاقه المتحف ، وهو مكون من دورين : أعلى وأسفل ، وصعدا إلى الدور الأعلى على سلم عريض من الرخام ، ورأى في أعلاه ، مرآتين كبيرتين مزينتين بالتماثيل ، كما رأى ساعة كبيرة على مقعد مزخرف ، وأخذ يشاهد المعروضات في الدور . وكان أول ما شاهده دروع الفرسان النحاسية وغير النحاسية . ورأى خوذة ـ خالها تركية ـ كتب في أعلاها : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وكتبت وسطها آية الكرسي في شكل دائري ، وشاهد كثيراً من أسلحة القرون الماضية سيوفاً وغير سيوف محلاة مقابضها بالجواهر ، كما شاهد قسمًا خاصاً بالساعات ، وقسمًا خاصاً بثياب رجال الكنائس المزركشة والكتب المقدسة مرصعة بالجواهر واللآلىء ومعها صور للعذراء ولبعض القديسين . ويزخر هذا الدور العلوي بأوان لا حصر لها ذهبية وفضية وبعضها مهدي من الدول إلى القياصرة ، حمله إليهم سفراؤها ، وتمتد التواريخ على التحف منذ القرن الخامس عشر ، وكأنه لم يضع شيء مما كان في قصور القياصرة أثناء الثورة الروسية الدامية . وتجسم في الأواني صور وتماثيل كثيرة ، والزجاجي منها والخزفي محلى بالذهب والفضة والأطباق الصينية محلاة بزركشة بديعة ، وكذلك الصينيات والكئوس الكبيرة والصغيرة . وتكثر الشمعدانات والتماثيل المتخذة من سن الفيل للأسد والصقور ، وفي جانب من هذا الدور أواني بطرس الأكبر الذهبية »[1] .

إنما أردت بهذا النص المطول الذي يصور الدور العلوي من قصر الكرملين ، أن أعرض للقارىء كيف يصف شوقي ضيف وكيف يعرض مشاهده ، كأنه أمين المتحف يراجع سجلاته ، فلا يترك صغيرة أو كبيرة ، وينتقل بعد ذلك الى بقية أجزاء القصر ، ثم إلى بقية الأماكن التي زارها هنا وهناك . ومن هنا يتضح مدى أهمية الوصف عند شوقي ضيف ، ليس فقط وصف المتاحف العديدة التي كان يهتم بها في كل مكان زاره ، ولكن أيضاً وصف المدن لا من حيث هي أبنية وشوارع ومعالم ومتاحف ومكتبات

(١) حـ ٢ ص ٢٠ .

وجامعات وحسب ، ولكن أيضاً من حيث هي مجتمعات لها عادات وتقاليد ، وبشر لهم طموحاتهم وعواطفهم وآمالهم وآلامهم ومثلهم العليا في الحياة ، وينقل صوراً من لهوهم وجدهم ، حتى لا نعود محتاجين إلى لوحات توضيحية .

وفي طريق عودته إلى مصر تقوم حرب ١٩٥٦ فيتوقف في بيروت مدة حتى ينجلي الموقف وتفتح المطارات ، ولكنه لا يضيع هذه الفترة ، ثم هو منفعل بهذه الحرب القذرة التي تآمرت فيها ثلاث دول على مصر كأنما هو تحالف دولي من أجل كسر شوكة مصر ، يذكرنا بالتحالف الدولي الأول والثاني والثالث أمام نابليون في القرن الماضي ، إنها الدول الكبرى التي لا تريد لغيرها أن يكبر ، ولكن الدول لها أعمار كما يقول ابن خلدون في مقدمته وهكذا تتحول دول عظمى بعد هذه الحرب إلى دول من الدرجة الثانية لا تستطيع الحفاظ على مستعمراتها فتفقدها واحدة اثر أخرى . وهنا يكتب شوقي ضيف مؤلفه (استالينجراد الثانية) يوازن فيه بين بورسعيد في صمودها أمام العدوان واستالينجراد في صمودها أمام هتلر ، كلتا المدينتين قاومت وتحملت كثيراً من الدمار ، ولكنها افتدت أمتها في النهاية .

وهنا نحس كأن شوقي ضيف قد قال أهم ما يود أن يقول ، ولذلك يجرى مسرعاً عجلاً في مذكراته ويمر على أحداث يعبرها ، كأنه لا يريد أن يتذكرها أو يذكرها ، فقد قال أهم ما عنده من وجهة نظره ، ولم يبق لديه إلا بعض معالم على الطريق . ولذلك يذكر اختيار المجمع العلمي العراقي له عضواً مراسلاً عام تسعة وخمسين وتسعمائة وألف واختياره ليشترك في امتحان ليسانس الآداب بفرع الخرطوم وزيارته لدمشق في مهرجان الشعر الثاني الذي أقامه المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ودعوته عام واحد وستين وتسعمائة وألف لالقاء محاضرة بالمركز الثقافي بحلب ثم دعوته أستاذاً زائراً مدة أسبوعين بجامعة بيروت العربية وكأنه يقفز قفزاً وإن كان قد توقف بطبيعة الحال أمام قلعة حلب وتذكر سيف الدولة وشاعره المتنبي ، كما توقف أمام الطبيعة الخلابة بلبنان .

وتوقف وقفة قصيرة أمام سنوات قضاها في عمان بالأردن معاراً من جامعة القاهرة ، وإن كانت هذه الوقفات الصغيرة أمام الأمور الحياتية قد حل محلها وقفات طويلة أمام الحياة الفكرية ، فدروسه هناك أتاحت له فرصة إعادة دراسة الحياة الثقافية أيام الحروب الصليبية وتبين له خطأ المستشرقين ومن تابعهم من الباحثين العرب حين عدوا هذه الفترة (القرنين السابع والثامن الهجريين على وجه الخصوص) فترة ركود وضعف ، فقد

رأى أن الأمـة وهي تشحذ قواها جميعها وتستطيع أن تقضي على التتار الذين اندفعوا كالسيل لم يقف في طريقهم شيء سوى (عين جالوت) التي عبرت عن وحدة الجبهة في مصر والشام ، والتي استطاعت استعادة القدس من أيدي الصليبيين ثم القضاء عليهم نهائياً والقاءهم في البحر ليعودوا من حيث أتوا لا يمكن أن تكون أمة لاهية واهنة لا حربياً ولا فكرياً ، فحاول أن يرد إلى العصر اعتباره . ومازالت زياراته تترى فهو في بغداد مدة أسبوعين بدعوة من جامعة بغداد ، ثم هو في استانبول بعد ذلك مع أسرته سائحين ، وإذا كانت بغداد سوف تأخذ منه الكثير بعد ذلك وهو يدرسها ، فقد توقف عند أنطاكية في سياحة وتذكر مدائح أبي تمام لمحمد بن يوسف الطائي وجنوده البواسل وهم ينازلون جند بيزنطة في الأناضول شتاء والثلوج المتراكمة على الجبال وطرقاتها الضيقة وارتفاعها الشاهق ، وكان يتصور وهو يقوم بتدريس تلك المدائح لطلابه أن أبا تمام إنما يبالغ ، حتى إذا رآها رأي العين ، يتيقن أن أبا تمام كان يصف بطولة حقيقية .

وما يزال شوقي ضيف يمزج بين الأحداث السياسية وسيرة حياته بأحداثها الخاصة ، فيتوقف وقفة قصيرة عند حرب ١٩٦٧ كأنما يريد أن يقول أمرين : الأول أننا نعيش في عصر أثرت فيه السياسة في كل جوانب الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، فلا يكاد الانسان يخلو إلى نفسه ليفكر حتى يروعه حدث سياسي ، وكأننا نتنفس السياسة مع الهواء كل حين . والأمر الثاني أننا اعتدنا هذه الحياة حتى أصبحت وهي تشغلنا لا تشغـل إلا مسـاحة محدودة من فكرنا سواء أكانت أخباراً سارة أو أخباراً مؤلمة ، فقد « تكسرت النصال على النصال » من طول ما تجرعنا وعانينا . ولكن النكسة لم تمر دون أن يستغلها كما عودنا أن يختزن كل موقف وأن يحوله إلى دراسة جادة ، فقد أصدر كتابه «البطولة في الشعر العربي » ، محاولاً قدر طاقته وجهده أن يمسح أثر الانهزام ، وأن يقول لنا ان حياة الأمم مليئة بالانتصارات ، وحياة الأمة العربية على وجه الخصوص حياة يحتل فيها النصر صفحات مشرقة ، أما الهزائم فهي نقاط لا تلوث الصفحات ، وان الانسان يسقط ويقوم ولا ينهزم إلا إذا هزمت إرادته .

وأحيل الى التقاعد في صيف عام ١٩٧٠ . ولكنه لم يتقاعد ، فالتقاعد من القعود ، وهو لم يتعود القعود أبداً ، لقد بدأ أخطر مشروع له منذ عشر سنوات وسيبقى مشغولاً به عشر سنـوات أخـرى ، إنـه تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ، في العصر

الإسلامي ، التطور والتجديد في الشعر الأموي ، في العصر العباسي الأول ، في العصر العباسي الثاني ، عصر الدول والإمارات حـ ١ ، عصر الدول والإمارات حـ ٢ ، الأدب العربي المعاصر في مصر ، دراسات في الشعر العربي المعاصر . إنها موسوعة لا ينهض بها فرد عادة ، وإنما تنهض بها مؤسسة تبقى أجيالاً تصدرها جزءاً بعد جزء ، ولكنه نهض بهذا العمل الكبير وحده ، منذ فتوته إلى شيخوخته ، وكأنه أحد عمالقة تراثنا الذين وهبوا حياتهم لعمل علمي كبير كأنه الطبري يكتب « التاريخ » أو « التفسير » ، كأنه الجاحظ يكتب موسوعته « الحيوان » كأنه البخاري أو مسلم يكتب « صحيحه » كأنه الأصبهاني يكتب « الأغاني » كأنه الخطيب البغدادي يكتب « تاريخ بغداد » ، كأنه ابن منظور يكتب « لسان العرب » ، كأنه القلقشندي يكتب « صبح الأعشى » كأنه ابن حزم يكتب « المحلى » .

ويذهب إلى جامعة الكويت متعاقداً فتتسع دائرة تأثيره ، ويقوم بالتدريس ، ويشرف على طلاب الدراسات العليا كما أشرف من قبل ومن بعد على طلاب جامعة القاهرة والجامعة الأردنية ، ويكون مدرسة علمية تمتد من المشرق الى المغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، ولا أبالغ إذا قلت أن جيل الأساتذة الآن بالجامعات العربية تتلمذ على يديه بطريقة مباشرة أو على كتبه أى بطريقة غير مباشرة ، فكل أقسام اللغة العربية مدينة له ولعلمه .

لقد بدأ يحصد ما زرع ، وكان أول الغيث اختياره عضواً بمجمع اللغة العربية عام ستة وسبعين وتسعمائة وألف ، وهو في المجمع يحاول منذ اختياره أن يقوم بما سوف تذكره له الأجيال القادمة من محاولات مستمرة لتيسير النحو العربي ، وهو شغله الشاغل الآن بعد أن فرغ من تاريخ الأدب ، ورأى تعلم الشباب للعربية ، فرأى أن تيسير النحو وسيلة الى رأب الصدع ، ومازال يحاول مرة ومرة ومرات .

وفي سبتمبر عام تسعة وسبعين قرر المجلس الأعلى للفنون والآداب منحه جائزة الدولة التقديرية للآداب ، وجاء في حيثيات القرار (إنه يعد نمطاً فريداً في جيله وإماماً في تخصصه . وهو بحق ظاهرة ثقافية ودلالة أصيلة على قدرة مصر الفكرية . وقد أصبح بحق مفخرة كبيرة لمصر في شتى الأروقة العلمية والجامعات العربية وغير العربية » .

وفي يناير عام ثلاثة وثمانين نشرت الصحف نبأ حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي (تقديراً لأعماله في أدب القرنين الثاني والثالث الهجريين ، بالإضافة الى

دراساته في تاريخ الأدب العالمي قديمه في مشرقه ومغربه ، وما كان منها في الدراسات القرآنية والنحوية والبلاغية التي تعمق الدراسات الأدبية ، مع تميز أعماله بالنظرة الشاملة للأدب العربي نثره وشعره على طول عصوره وتعدد فنونه واختلاف بقاعه . . . » .

ويرد هو على هذا التقدير قائلاً : إن هذه الجائزة العالمية العظيمة ستدفع دفعاً إلى منافسة حميدة في الأقطار العربية بين المتعمقين في الدراسات الاسلامية ، ودراسات الأدب العربي ، والدراسات العالمية ، للفوز بقصب السبق ، مما يعود بأكبر النفع على نهضتنا العربية المعاصرة .

وها نحن نقترب من النهاية ، والنهاية تتمة لمشهد البداية ، كانت البداية بنفحات الدين الحنيف والقرآن الكريم والكتاب والمعهد الديني ، وها نحن اليوم مع شوقي ضيف في رحلة الحج ، يخلص من ضوضاء الحياة ومشاغلها المادية ، لينعم فترة بالحياة الروحية ومتاعها الهنيء الذي لا يدانيه متاع . . . واكتحلت عيناه بقبر الرسول وسار في طرقات عبرها الرسول من قبل وصور التاريخ لا تبرح خياله ، كأنما ارتد اليه الماضي بعبقه يحيا في الواقع مرة أخرى . . . ثم سار إلى مكة المكرمة ، وطاف حول الكعبة وأتم شعائر الحج ، فغسل قلبه وملأ روحه بقوة ربانية ، وأحس كأنما خلق من جديد خلقاً آخر .

هكذا توقف القلم بعد مسيرة طويلة طولها خمسة وسبعون عاماً ، تمثل القرن العشرين فكراً وثقافة وسياسة وتربية وتجارب من خلال رحلة فرد متميز ، يعرضها عرضاً أدبياً ، يتوقف ويتأمل حيناً ، ويسرع الخطى حيناً آخر ، ويستخلص العبرة في كل الأحيان ، يمزج بين التركيب والتحليل في البناء ، ولكنه لا يعرض الصورة بكل جوانبها ، فقد ترك فراغاً لا ندري له سبباً ، لمسه حيناً لمساً خفيفاً ، حين تحدث عن الوفاء ، ولكن هذا لم يشبع نهمنا ، فشوقي ضيف المفكر واضح تمام الوضوح ، ولكن شوقي ضيف الانسان في بيته ، مع أولاده ، في عاداته وتقاليده ، في عواطفه بكل مدلول الكلمة ، كل هذا أسدل عليه ستوراً كثيفة ، وحجبه عنا ، كأنه يراه نوعاً من الخصوصية قد لا تفيد الناس ، أو نوعاً من الضعف البشري لا يليق بالكبار ، أو هو نتيجة النشأة الريفية التي تعتبر الحديث عن الأسرة لا يليق ، ولكن كل هذا لا يقنع القارىء ، فلمسة حنان هنا ، ولمسة أبوة هناك ، وأسلوب حياة في طرق التهيؤ للكتابة ، أو في الترويح عن النفس من خلال الحياة اليومية ، كانت كفيلة بأن تزيد السيرة إمتاعاً وخصوبة وتشويقاً .